الوعد والمنعطف: مقتدى الصدر، الراديكالية الشيعية والاحتلال الأمريكي للعراق (1)

هل سيكون التيار الصدري قادرا على حسم تناقضه الجوهري مع الاحتلال والتحول لتيار شعبي تحرري ووطني؟

حركة مقتدى الصدر انعطافة هامة في تاريخ الشيعة السياسي وخروج على تآلف الأغلبية مع الاحتلال والتعاون معه

فاضل الربيعي*

في هذه الدراسة الجديدة يعرض الباحث والمفكر العراقي فاضل الربيعي تصوره لمستقبل التيار الصدري في العراق، ويتناول الأسس والمنطلقات الفقهية والفكرية والسياسية التي قام عليها بعد التاسع من نيسان (إبريل) 2003. وإذ يلاحظ الباحث أن هذا التيار يجمع بين مقاومة الاحتلال ومواصلة سياسات تصفية حزب البعث في الآن ذاته؛ فإنه يتكهن بإمكانية حدوث انقسام خطير قد يدمر الأسس التي قام عليها. كما أن عجزه عن حسم التناقض الجوهري ضد الاحتلال، قد يفضي به إلى التحالف مع القوى والجماعات التي ارتطم بها في سياق تطوره.

«القدس العربي»

الرئيس الأمريكي يقول: «بات العالم أكثر أمنا». أقول: «باتت أمريكا أكثر أمنا والعالم أكثر خطرا بسبب سياساتك وسياسات العدو الصهيوني؛ فأنتم تنزعون أسلحة المقاومة ولا تنزعون أسلحة إسرائيل النووية، وأنتم تحاربون الإسلام ولا تحاربون غيره وتدافعون عن السامية ولا تدافعون عن الإسلام».

الشيخ مقتدى الصدر (من خطبة في التظاهرة المليونية ببغداد 2004)، صحيفة الجمعة العدد 18.

في لقاء بمجموعة من أهالي منطقة الكفل2 تحدث أحد مجتهدي النجف معقبا «على قصيدة شعبية لأحد شباب الكفل» وأورد اسم السيد مقتدى في خاتمة أسماء مجموعة من رجال الدين فكان رد السيد 3 ردا«عدائيا» مؤسفا بحق آل الصدر العظام. (..) وهنا انبرى سماحة السيد المجتهد قائلا: ما هذا الاسم الأخير (يقصد اسم السيد مقتدى). غير مقبول. هذا غير مقبول بل هو تجرؤ شديد.

من مقالة في صحيفة «الحوزة» العدد21 نيسان/ ابريل2005

هل ينجح تيار مقتدى الصدر، في نهاية المطاف، في حل تناقضه مع الاحتلال الأمريكي؛ حسمه بكلام أدق ويتحول إلى قوة تحررية راديكالية حقيقية منحازة إلى قيم الديمقراطية ؟ أم أنه سوف يخفق ويتحول إلى قوة رجعية مُنتجة للقهر والاستبداد؟ ينطلق هذا السؤال من فرضية في هذا المنحى، مقبولة إلى حد بعيد في أوساط المراقبين والمتابعين للسياسات التي انتهجها التيار حيال جملة من الموضوعات، وتدعم تصورا «مركزيا»، من تصورات هذا البحث، يرى من خلال حزمة من الوقائع، أن التيار الصدري وفي سياق التمايزات الحادة الراهنة في الميدان السياسي العراقي؛ الآخذة في الاشتداد والنمو بشكل متتابع منذ وقوع الغزو الأمريكي للعراق، بات فعليا «على أعتاب انقلاب حقيقي في أوضاعه ومواقفه قد تفضي به إلى نوع من الانشقاق أو الانقسام؛ بل إن إمكانية رؤية تحول دراماتيكي في هذين الاتجاهين، أي التجذر كتيار ديمقراطي أو النكوص، هي إمكانية حقيقية لا مناص من ملاقاتها.وخليق بالمرء المتابع للسياسات المتناقضة للتيار، أن يلاحظ، ومن دون رياء، أن الفرضية الآنفة ليست سوى استطراد في فرضيات واحتمالات عدة تطاول قوى وجماعات مذهبية وسياسية أخرى، وقد تطبع بطابعها كامل المنظر السياسي الراهن. في هذا النطاق المحدود من المسألة؛ من الهام للغاية التأكيد على أن التيار الصدري، وبخلاف الكثير من الجماعات الدينية– الحزبية، يمثل ويعبر بحق، عن أهم تطور راديكالي حدث، على الإطلاق، داخل منظومة الفكر السياسي الشيعي في العراق المعاصر منذ ما يقرب من ثمانين عاما وحتى الآن؛ وهو عبر عن نفسه في صورة تحول شامل طاول شكل الحزب السياسي «الديني» الكلاسيكي، الذي أنتجه هذا الفكر وسهر عند مهده طوال العقود الماضية. وكما أن هذا التطور المفاجئ، أسهم على نحو لافت للنظر في تبديل محتوى الحزب السياسي «الشيعي» التقليدي، وكذلك تعديل بنيته التنظيمية الجامدة، وأحدث على نطاق واسع تغييرا«عاصفا» وجوهريا لا سابق له في أشكال التخاطب مع الجماهير؛ فإنه قام بنقله دفعة واحدة من طور الحزب بوصفه «مجتمعا عقائديا صغيرا ومغلقا»، إلى طور الحزب بوصفه كتلة شعبية، منفتحة ومشرعة أبوابه أمام كل الفئات والطبقات الاجتماعية. وهذا هو المغزى الفعلي لوجود التيار وتمايزه عن سائر الجماعات الشيعية، فهو لا يعرف بنية تراتبية حديدية ومتماسكة ولا روابط متينة بين أفراده كما لا يعرف، تقريبا، الأساليب التقليدية في العمل الحزبي اليومي. وهو إلى هذا كله، وإن امتلك أيديولوجيا شعبوية بسيطة وخاصة به، تعتمد على شعارات وأفكار ذات طابع تحريضي؛ فقد نجح، مع ذلك في تكوين اذرع سياسية ودينية متينة في كل مكان في العراق؛ وتمكن من تفعيل طاقات أعضائه على التواصل مع مجموعات سكانية متنوعة خارج الإطار المذهبي. ولأن هذا التحول عنى، في خاتمة المطاف، تحولا«مذهلا» في طبيعة «الشيعية السياسية» التاريخية في العراق، التي ظلت ولوقت طويل نسبيا» أسيرة الرعاية الروحية، الخانقة للحوزة ومفاهيمها للعمل السياسي، وبحيث بدا وخلال حقب وفترات مختلفة، وكأن وظيفتها الوحيدة المناطة بها هي الدفاع عن «مصالح الطائفة» في وجه الدولة؛ فقد أصبحت «الشيعية السياسية» الجديدة، المتحولة مع صعود تيار الصدر وبفضل نشاطه وحضوره المكثف، وفي اللحظة التي شرع فيها الاحتلال بمحو الدولة الوطنية (ابتداء من التاسع من نيسان/ ابريل 2003) أكثر انشغالا «واهتماما» بمسألة الدفاع لا عن المجتمع ككل وإنما عن فكرة الدولة أيضا»؛ هذه التي خاصمتها الأحزاب الشيعية التقليدية وناصبتها العداء، وذلك مع ظهور أولى النتائج المدمرة الناجمة عن انحلال مؤسسات الدولة وتلاشيها عن المسرح (فوضى السلب والنهب، الانفلات الأمني، أعمال القتل والحرق وتحطيم المؤسسات والمراكز الخدمية، التجاوزات والتعديات المخيفة التي تعرض لها الأبرياء).

لكل ذلك، وبصرف النظر عن رأينا بأفكاره وسياساته، يبدو تيار الصدر أهم تحول تاريخي حدث داخل ما يمكن اعتباره «منظومة الفكر السياسي الشيعي» الكلاسيكي.

من الانغلاق الى الشعبية

لقد أنجز هذا التحول، ببساطة، ورغم كل اللغط والتهريج والتشنيع على كفاءة الشيخ الصدر؛ المهمة التي كانت تبدو مستحيلة، نعني الانتقال بالحزب الديني من طور المجتمع الصغير «العقائدي والمغلق» إلى طور «الكتلة الشعبية»؛ ومن موضوعات «الدفاع عن مصالح الطائفة» إلى موضوعات «الدفاع عن مصالح الشعب» بشكل مباشر. ولكن؛ وبصرف النظر ـ مرة أخرى ـ عن موقفنا من هذا التطور وأهميته في المدى الراهن أو البعيد؛ فإنه مثير للاهتمام ويجدر بنا النظر إليه على أنه يختزن إمكانيات مختلفة يصعب تحديد اتجاهاتها، وبعضها يتجه فعليا«صوب الاحتمالين المتعاكسين بنفس السرعة والدرجة من القوة. ولذلك فالسؤال في صيغته الراهنة ليس تماما«فرضية خيالية أو أنه يثير أمرا لا وجود له، والأدق أنه يثير موضوعا» فريدا «وحيويا»من المواضيع التي غالبا«ما يجري مواجهتها بالصمت أو اللامبالاة».

لقد جسد ظهور تيار الصدر في الميدان السياسي العراقي، منذ الأيام الأولى للاحتلال، الطبيعة المتناقضة والمتنافرة لبنى الشيعية السياسية؛ كما كشف عن هشاشة الخطاب التقليدي ودرجة تشوشه وتزييفه للواقع واستغراقه السقيم في المسائل غير الجوهرية؛ ولكنه من جانب موازٍ، فضح طرق تفكير وسلوك مختلف الحركات والقوى والجماعات، وبشكل أخص، تكتيكاتها وتحالفاتها الإقليمية والدولية، وذلك مع انهيار المُحرمات (كالعلاقة مع الاحتلال الأجنبي) عند بعض الأحزاب الشيعية التاريخية، وبحيث غدا التعاون مع الاحتلال على لسان أغلب السياسيين الشيعة، وكأنه دليل الحنكة أو المهارة؛ مقابل التمسك بالثوابت الوطنية عند الصدريين. ويمكن للمرء، في هذا السياق، تقديم وصف مقتضب بأقل ما يمكن من الكلمات، لمغزى التطور الذي شهدته الشيعية السياسية في العراق، مع ظهور تيار الصدر وحدوده وآفاقه وعناصره على النحو التالي:

إن التيار الصدري هو التطور الأكثر أهمية في تاريخ الشيعية السياسية في العراق؛ لأنه وضعها كليا «ومن دون أي تردد أمام منعطف خطير، وفي اللحظة التي أضحى فيها شطر كبير من القوى والجماعات الحزبية الشيعية جزءاً من بنية الاحتلال؛ أي في اللحظة التي انتقلت فيها قوى اجتماعية وسياسية شيعية، من مرحلة الترويج للحملة العسكرية الأمريكية على العراق وتبريرها، إلى مرحلة العمل في خدمتها كأداة طيعة بصورة مكشوفة. وكان نشاط التيار، يتلازم في هذه اللحظة، ميدانيا»، وشيئا «فشيئا» مع حقيقة أن جزءاً من الشيعة، أصبح فعليا خارج سيطرة الأحزاب الدينية التقليدية، بينما يغدو، في الآن ذاته، جزء آخر، وتدريجا في مهب رياح عاتية تتقاذفه فيها سياسات ومواقف ومشاعر متناقضة ممُزقة للوجدان: ضد الاحتلال ومعه؛ ضد «المقاومة المسلحة» ومع «مقاومة سلمية شريفة ـ بحسب التعبير الرائج في بعض أوساط الشيعة ». في هذه اللحظة العصيبة من التاريخ جاء ظهور التيار الصدري ليضع الشيعية السياسية برمتها، وبعد عقود طويلة من الخمول الفكري وبق«التقليدية» في أساليب العمل السياسي وهيمنة الحوزة في النجف؛ أمام خيارات جديدة تبدو أكثر انسجاما «مع التاريخ الوطني والنضالي للشيعة العراقيين، الذين شعر قسم كبير منهم بالحرج من مواقف الأحزاب والقوى والجماعات الداعمة والمتواطئة مع الاحتلال. ولذا يصح القول، أن ظهور التيار الصدري ربما يكون أسهم بشكل مباشر في تعجيل التمايز»، والاستقطاب، ومفاقمته داخل هذه الجماعات، وفي تحديد تخوم التحول داخل الشيعية السياسية ككل. إن أهم سمة مميزة، يمكن ملاحظتها في سياق هذا التطور، تتمثل في انقسام الشيعية السياسية (الحزبية) إلى مجموعتين أو كتلتين كبيرتين ابتداء من التاسع من نيسان (ابريل) 2003:

تبلورت الكتلة الأولى، في صورة تيار شعبي جديد، سوف يجمع بين منطلقين سياسيين متناقضين: الخصومة أو العداء للدولة الوطنية وبين الصراع ضد الاحتلال الخارجي؛ وهذا هو التيار الصدري الذي لعب دور الصاعق في تفجير الموقف «الشيعي» برمته، وأعاد تركيب تياراته وعناصره وقواه الاجتماعية على أسس مغايرة. بينما تبلورت الكتلة الثانية، نهائيا «في هيئة ائتلاف سياسي من جماعات مسلحة متنافسة سوف تجمع، هي الأخرى بين منطلقين متناقضين: التحالف مع الاحتلال ومعاداة المقاومة الوطنية، والترويج في الآن ذاته لشعار زائف ينادي بمقاومة سلمية. وفي حالات أخرى تشترط الكتلة وبرياء مفضوح إجماعا«عراقيا» شاملا على المقاومة كأساس لتأييدها، أيّ اشتراط حدوث معجزة تجمع كل العراقيين دون استثناء في خندق واحد. وفي غالب الأحيان ناهضت علنا«أي شكل من أشكال مقاومة الاحتلال يمكن أو يجب ان يبرز في صفوف الشيعة أنفسهم»، وهذا هو الائتلاف الشيعي 4 بكل فصائله. هاتان الكتلتان، عبرتا بقوة عن نمط غير مألوف من الاصطفاف داخل الشيعية السياسية، إذ لم يسبق، في أي وقت آخر، أن وجد الشيعة أنفسهم، مثلما حدث مع احتلال العراق، في قلب تجاذب هائل تحرسه البنادق لا الأفكار، والمصالح لا المبادئ. يكفي التذكير أن انقساما «مماثلا»، وقع في صفوف الشيعة العراقيين وبدعم من إيران القاجارية سنوات 1917ـ1919 (وبعد عامين فقط من الاحتلال البريطاني) حيث برز آنذاك تياران متصارعان: تيار المجتهدين وتيار الشريفيين5، بيد أن هذا الانقسام لم يكن، على أية حال، سوى نمط مألوف من الانشقاقات المجردة من أية دوافع أو بواعث فكرية حقيقية؛ وظل توزع الشيعة بين هذين الفريقين مجرد تعبير عن خلاف سياسي قابل للتجاوز؛ ولم يُقيض لهما، قط، أن يتبلورا في صورة كتلتين متصارعتين ومتنازعتين.

قصارى القول أن الذين ابتهجوا بظهور التيار الصدري، وأيدوا أو دعموا الدور الذي لعبه، إنما كانوا ينطلقون من حقيقة أن التيار الجديد، الشبابي في الغالب، عبر بقوة عن الحساسية الشديدة في صفوف الشيعة إزاء تاريخهم النضالي، وعموما «تجاه محاولات تمزيق الوجدان الوطني وهتك التقاليد الوطنية وتخريب روح العداء للاستعمار والتي حرص الفريق الآخر على إشاعتها والترويج لها) وأنه كان تيارا«مولدا» لتلك الروح المتأججة، القادرة على الدفع بالتمايز داخل الجماعات السياسية حتى ابعد نقطة ممكنة. ولذا رأوا فيه، وبحق، تواصلا«ثوريا» مع التقاليد النضالية؛ ولكنهم في الآن ذاته، وبرغم كل ما أبدوه من دعم وتعاطف، كانوا يشعرون بالحيرة والحرج بعض الشيء، وخصوصا حيال ما اعتبروه نوعا من التناقض الفاضح في تكتيكات وشعارات الصدريين، وربما تشوشا«أو نمطا» غير مألوف من «مراهقة سياسية» طبعت بطابعها الكثير من تصرفات أفراده وقادته الميدانيين. لهذا السبب وحده، يمكن إعادة طرح السؤال الآنف نفسه في صيغة أخرى موازية:

هل بوسع التيار الصدري أن يحسم فعليا تناقضه الجوهري مع الاحتلال، ويتحول إلى تيار شعبي تحرري ووطني منتج لقيم الديمقراطية؟

يتطلب الجواب عن هذا النمط من الأسئلة، إدراك حقيقة أن الشيعية السياسية الراهنة، هي ظاهرة حديثة نسبيا، وأن حضورها كقوة فاعلة في المسرح السياسي العراقي ظل محدودا، وربما ضعيف التأثير طوال ما يزيد قليلا عن أربعة عقود ماضية 1958ـ2003؛ وذلك بفعل جملة من العوامل من بينها أن الحزب الشيعي الوحيد آنذاك (حزب الدعوة) كان في مواجهة مبكرة مع اكبر تحد رافق ولادته؛ إذ ارتطم بالصعود القوي للتيارات القومية واليساريّة في نهاية الخمسينات من القرن الماضي، لا في العراق وحده؛ بل وفي محيط عربي (سني ـ من وجهة نظر الأحزاب الشيعية الطائفية بالطبع) عريض ويستمد معتقداته السياسية والفكرية من عالم منقسم، بدوره، إلى معسكرين متعارضين، نظرت إليهما حوزة النجف وباستمرار على أنهما معسكران معاديان لها؛ شرقي وغربي، شيوعي ورأسمالي، اشتراكي و ليبرالي (علما أن كلمة ليبرالية كانت تعني في الخمسينات شيئا«معيبا» عند رجال الدين وعند كثرة من الأحزاب والجماعات العلمانية).كما أن القوى والجماعات الشيعية اصطدمت فجأة، بالحواجز الصلبة التي كانت تنتصب في قلب مجتمع يشهد، للتو، انتشارا «ونموا» مطردين للأفكار والنزعات الحديثة، بينما يشهد في المقابل خمولا«وتراجعا» في قوة الأفكار والنزعات التقليدية داخل المجتمع العراقي. ومع ذلك، عرفت الشيعية السياسية، فترات ازدهار وصعود في الحقب التي شهدت نزاعا«رمويا» بين القومين واليساريين (أعوام 1958ـ1963) من جهة؛ وبين البعثيين والقوميين والناصريين أنفسهم من جهة أخرى؛ وهي نزاعات وتوترات سوف تخلي تاليا «المكان، و تدريجا» أمام ظهور حركات وأحزاب وجماعات شيعية أكثر تنظيما»؛ ولتتواصل معها تقاليد مخاصمة الدولة الوطنية علنا» في أوساط الشيعة بدعم من المرجعيات في النجف. ولعل تجربة حزب الدعوة مثلا؛ الذي حصل منذ ولادته في الستينات من القرن الماضي وفي ذروة الصراع بين البعثيين والشيوعيين على دعم صريح من المؤسسة الدينية، تدلل بشكل قاطع على أن الحوزة أدركت، وإن متأخرا، أهمية الزج بجزء من سلطتها الروحية على الشيعة في ميدان السياسة المباشر.لقد رأت في هذا الصراع فرصتها الذهبية لتثبيت نفوذها السياسي والديني؛ وفي الآن ذاته التقاط فرصتها العظيمة كمؤسسة دينية، للهيمنة على العالم السياسي للشيعة بشكل مطلق؛ أي لتفرض سطوتها على المجال السياسي وتقوم بنفسها بتطوير خصومتهم التاريخية مع الدولة، وذلك من خلال إشباعها بكل ما يلزم من النفور والكراهية، للعلمانية والقومية وحتى «للديمقراطية» بما هي فكرة غربية شيطانية6 . في هذا الإطار تبدو الشيعية السياسية في العراق، بالنسبة للمراقب، كخلاصة لسلسلة من التجاذبات شبه المنتظمة والدورية، بين الدولة الوطنية من جهة، والمؤسسة الدينية7 من جهة أخرى، كما أنها في السياق ذاته، تبدو كنتاج لسلسلة مماثلة من التجاذبات بين أفكار التحديث والعلمانية وبين الأفكار التقليدية في المجتمع العراقي.

فهل يمكن القول إن بوسع التيار الصدري تخطي هذا التاريخ من التجاذب وتجاوزه؟

ولكن؛ هل هذا التيار أصلا، من حيث هيمنة المنطلقات والأفكار «الدينية» على منهجيته السياسية، وثقل رجال الدين فيه، والذين يؤلفون قوة شبه متماسكة تعمل مع قطاعات واسعة من المجتمع العراقي بفعالية عالية؛ هو قوة تحررية حقيقية قادرة بالفعل على تجاوز تاريخ الخصومة التقليدية مع القوميين واليساريين؟ وأن بوسعه تمييز نفسه عن سائر القوى والأحزاب والميليشيات «الشيعية»، بوصفه «قوة ديمقراطية» أو جذرية ؟ وماذا سيحدث، لو أن الأقدار وتطورات الأحداث في العراق، ساقت هذا التيار، أخيرا ومن حيث لا يتكهن أحد، إلى تخوم الإخفاق والفشل في هذه المهمة، أو لنقل، فرضت عليه الوقوف عاجزا مشلول الإرادة أمام مهمة إعادة تعريف نفسه كتيار شعبي تحرري؛ وهي مهمة حيوية وملحة لا تزال تواجه هذا التيار في كل لحظة من لحظات مقاومة الاحتلال الأمريكي على الأرض ؟ وماذا لو انه، لأسباب أخرى مختلفة وبدوافع شتى، وتحت ضغط ظروف ودسائس ومناورات لا قبل له بالصمود في وجهها، فشل في عرض تصور صحيح لأدواره في الحياة السياسية والعامة في المستقبل المنظور، وكذلك في الحفاظ على قوة زخمه الجماهيري كتيار مناهض للاحتلال ؟ هل سيتحول، في هذه الحالة وحدها، إلى قوة رجعية منتجة للقهر والاستبداد، بدلا من أن يتحول إلى قوة ديمقراطية؟ وما هي على وجه التحديد، الظروف والمهام والوسائل التي تمكن هذا التيار من الحفاظ على طابعه كقوة تحررية؟ هل سيتوقف مستقبله بالفعل، وكليا، على حسم (وحل) التناقض مع الاحتلال، قبل حل أي تناقض أو تعارض آخر ومهما كانت درجة أهميته؟

هوامش

1 : منذ عام 1906 (الثورة الدستورية) وحتى الأربعينات من القرن الماضي، عرفت إيران تيارات فكرية صادرة عن «شيعية راديكالية» غيرت إلى حد كبير وجه «الشيعية السياسية» التاريخية. وبينما عاشت إيران سجالا«فقهيا» وفكريا«هاما» للغاية يمكن اعتبار نتائجه بمثابة أكبر تحد واجهته المؤسسة الدينية التقليدية (على يد محمد نخشب وجلاّل الدين اشتباني وسواهما) لم يشهد العراق والمؤسسة الدينية التقليدية في النجف(الحوزة) وطوال عقود عدة تحديا «يُذكر، لا على صعيد الفكر السياسي ولا على صعيد الفقه. لقد عاشت النجف في ظل حوزتها التقليدية (المحافظة) عقودا متتالية، كما كانت في الماضي البعيد، قابعة دون خوف تقريبا من أي تغيير جذري في الثوابت والمنطلقات الفقهية والسياسية، ومن دون أي تحد جدي أيضا». وفي حين كانت المؤسسة الدينية في إيران بحوزتيها (التقليدية والتجديدية في قم ومشهد) تشهد حراكا «فقهيا» وسياسيا» طاول، في الجوهر، مسائل إصلاح وتحديث الشيعية السياسية التاريخية، ومفهوم العمل السياسي بالنسبة لرجال الدين مثلما طاول مشكلات تجديد بنى الفقه الشيعي؛ كانت نظيرتها المؤسسة الدينية في النجف تواصل التفتيش عن الفرص والظروف، التي تمكنها من البقاء حبيسة جدران ماضيها وتقليديتها. بهذا المعنى كان النموذج الإيراني في الإصلاح والتحديث يُلهم، مع بروز دور علي شريعتي وتعاظم تأثيره في الخارج، رجال الدين العراقيين ويضعهم أمام أسئلة جديدة ومحيرة. كان الدور الفكري الهائل الذي لعبه شريعتي في تحرير الإسلام الإيراني من هيمنة المؤسسة الدينية؛ يطرح، في المقابل ومن خلال توجيه أفضل نقد فقهي ـ فكري صدر حتى الآن (بشكل أخص للصفوية الإيرانية كما لدور رجال الدين الإيرانيين) بل ويقدم الأفكار الأولى الضرورية والملهمة للمجتهدين الشيعة في العراق، ويعيد تذكيرهم لا بأهمية العمل الفقهي التجديدي وحسب، وإنما كذلك بضرورة إعادة النظر في مفهومهم السكوني «للشيعية السياسية». العنوان أعلاه؛ فصل من عمل ضخم يعكف الباحث على إنجازه. للمزيد حول النقطة الخاصة بتطور مفهوم العمل السياسي عند الأحزاب الشيعية أنظر مثلا: (عادل رؤوف: عراق بلا قيادة، قراءة في أزمة القيادة الإسلامية الشيعية في العراق الحديث، منشورات المركز العراقي للإعلام والدراسات 2002 دمشق)وانظر كذلك فؤاد إبراهيم: الفقيه والدولة، الفكر السياسي الشيعي، بيروت 1998، دار الكنوز الأدبية).

2 : تتبع مقاطعة الكفل الصغيرة من الناحية الإدارية محافظة الحلة (بابل التاريخية). والكفل هذه يزعم أنها تضم رفات النبي الذي ورد ذكره في القرآن (ذو الكفل) وأنه من أنبياء اليهودية الذين ماتوا خلال فترة ما يعرف بالسبي البابلي. اليوم أصبحت المقاطعة مزارا«دينيا» للإسرائيليين المتدفقين على العراق الجديد وقد أحيطت برعاية خاصة، وبحيث شهدت تدابير أمنية واسعة و عرفت إصلاحات وترميمات واسعة لما يزعم أنها آثار دينية يهودية.

3 : تعبير «السيد» يستخدمه الشيعة عموما «في معرض تبجيل مكانة ومنزلة بعض رجال الدين من خلال ربط شجرة أنسابهم بشجرة نسب الرسول الكريم محمد (ص). وتقليد إلقاء قصائد المديح وتعظيم مكانة هؤلاء في المجتمع من التقاليد الشيعية الخاصة، ويُلاحظ أن احتجاج أحد المجتهدين على القصيدة، يندرج في إطار الحط من منزلة الشيخ الصدر الدينية (درجة الأعلمية ـ من العلم في أمور الدين) كما يندرج في سياق مقاومة الدور الذي يلعبه في مقاومة الاحتلال الأمريكي، وبالطبع من جانب رجال دين شيعة ربطوا مصيرهم كليا بمشروع غزو العراق. رد الصحيفة، بدوره، يؤكد الطابع الحاد للصحيفة(المرجعيتين الصامتة والناطقة.(تفصيلات وافية عن هذين المفهومين في سياق البحث).

4 : يتألف الائتلاف الشيعي اليوم وكما برز في انتخابات 30 كانون الثاني (يناير) الماضي من حزبين تاريخيين: حزب الدعوة الذي يتزعمه إبراهيم الجعفري رئيس الوزراء المؤقت، والمجلس الإسلامي الأعلى للثورة العراقية بقيادة عبد العزيز الحكيم، ومن مجموعات وأحزاب صغيرة ظهرت بعد الاحتلال مثل حزب الفضيلة، و«البيت الشيعي» بقيادة الليبرالي ـ العلماني أحمد الجلبي، وكذلك من أحزاب صغيرة أخرى تشرف عليها المخابرات الإيرانية وتقودها بشكل مباشر مثل تنظيم ثار الله وحركة بقيت الله– يكتب اسم الحركة طبقا للتهجئة الإيرانية وبالتاء المفتوحة، وهذا دليل قاطع على نوع الاستهتار وحتى الازدراء الذي ميز التدخل الإيراني في الجنوب ـ وهناك شخصيات وأفراد ضمهم الائتلاف إلى قائمته وهو اليوم يسيطر على معظم مقاعد الجمعية الوطنية سوية مع شريكه الائتلاف الكردي.

5 : لعبت إيران ابتداء من 1917 حتى عام 1925، أي ابتداء من سقوط بغداد في قبضة البريطانيين حتى سقوط حكم الأسرة القاجارية وانتقال العرش إلى رضا خان؛ الدور ذاته تقريبا الذي تلعبه إيران اليوم في العراق، وكأن التاريخ يكرر كثيرا من وقائعه المتشابهة والمتماثلة على نحو سقيم. شجعت إيران، آنذاك، ظهور تيار موال للاحتلال في صفوف الشيعة، بينما قاومت تيارا آخر عرف بتيار «الشريفيين» نسبة إلى الشريف الحسين نادى بتنصيب ملك عربي وحتى إلى مواجهة البريطانيين.أنظر، مثلا، كتابنا (الجماهيريات العنيفة ونهاية الدولة الكاريزمية في العراق) دمشق 2005، دار الأهالي. وفي الكتاب تفاصيل واسعة حول هذه النقطة. في هذا الوقت شهدت إيران حضورا«لافتا» لرجل الدين آية الله الكاشاني الذي باشر من النجف الدعوة للانخراط في ثورة عام 1920. والتي توجتها بالدعوة إلى التطوع للقتال في فلسطين؛ قبل أن يصبح نائبا في البرلمان بعد خمس سنوات من هذا التاريخ.

6 : ظل الخطاب الشيعي حتى مع بروز دور الفيلسوف الشيعي محمد باقر الصدر (الصدر الأول) مؤسس حزب الدعوة وصاحب أشهر مؤلفين عند جماهير الشيعة (اقتصادنا) و (فلسفتنا)، مُصمما على النظر إلى الديمقراطية كفكرة غربية معادية للإسلام مثلها مثل الشيوعية. ويبدو أن حزب الدعوة الذي أسسه الصدر الأول ومنظره الأبرز، كان يثير بعض التحفظ في إيران وربما وصف الحزب من جانب بعض المسؤولين بأنه (يحظى بنوع من الحماية من قبل الغرب وأمريكا) بحسب تعبير محتشمي الذي ظل معاديا لحزب الدعوة (أنظر: اللقاء الصحفي الذي أجرته معه صحيفة «عصر ما» الإيرانية العدد 205 ونشر الباحث العراقي عادل رؤوف صورة فوتوغرافية من اللقاء، عراق بلا قيادة، مصدر مذكور) اليوم، وبعد عقود من العداء للديمقراطية كفكرة، تجري مصالحة نشطة لا سابق لها بالنسبة لشيعة العراق، مع أكبر ركيزة في الفكر السياسي الغربي. لهذا السبب وحده تبدو الديمقراطية في الخطاب الشيعي العراقي كما لو كانت مفتاحا«سحريا» لكل المشاكل المستعصية على الحل. لقد طغت فكرة الديمقراطية في الأدبيات السياسية الشيعية المعاصرة وفي الفكر السياسي الشيعي على ما عداها من مفاهيم.

7 : عاشت حوزة النجف وترعرعت، تاريخيا، داخل نوع مستتر من الخصومة وحتى العداء للدولة الوطنية؛ ورأت إليها على أنها «دولة كافرة ». إن أفضل مثال عن نوع هذه الخصومة ذلك الذي تعطيه واقعة رفض المرجع الأعلى للشيعة محسن الحكيم (والد باقر وعبد العزيز) لقاء رئيس الجمهورية العراقية عبد السلام محمد عارف خلال عامي 1963ـ1964. وبدلا من لقاء الرئيس، الذي بذل المستحيل لتحقيق مصالحة بين الدولة والمرجعية، قام الحكيم باستقبال فرح بهلوي زوجة شاه إيران لساعات عدة (للمزيد أنظر عادل رؤوف، عراق بلا قيادة، مصدر مذكور).

* باحث ومفكر عراقي مقيم في هولندا.